Available online at http://jgu.garmian.edu.krd

Journal of University of Garmian

https://doi.org/10.24271/garmian.22090436

# تجليات الرثاء في شعر ما قبل الإسلام-دراسة تطبيقية.

فاضل محمد قادر

قسم اللغة العربية //كلية التربية الأساسية// جامعة گرميان

*Article Info*

Received: September , 2022
Accepted : November ,2022
Published :December , 2022

*Keywords*

الرثاء ، الخنساء ، مالك ، شعرما قبل الإسلام

*Corresponding Author*

Fazil.mohammed@garmian.edu.krd

**ملخص**

المعروف ان الرثاء هو صوت البكاء مع الحركات والكلام على الميت، إضافة الى ذكر محاسن الميت والصفات الانسانية النبيلة فيه. والمتعارف قديما كان الرثاء على الميت على وجه الخصوص، وبمرور الزمن بدأ الشعراء يرثون الأحياء أيضا، وكلما زادت الصلة بين الشاعر والمرثي عليه زادت قوة قصائد الرثاء. وقد تعددت أغراض الرثاء في الشعر العربي قديما وحديثا، وذلك حسب صلة الشاعر بالمرثي عليه، مثل رثاء الأخ والأب والأم ورثاء البنت والأخت، أما رثاء الزوج على الزوجة قلَّ ما نراه في الأدب العربي القديم وذلك بسبب الحالة الاجتماعية عند العرب انذاك . وهناك رثاء المدن والممالك ورثاء فقدان الرقة والجمال، وهذا النوع الأخير غالبا ما نراه عند الشواعر . ويشكل الرثاء في الشعر الجاهلي غرضا مهما من الأغراض العديدة التي ولجها الشعراء، وذلك حين يفقد عزيز لديهم، والرثاء نمط من الحزن الذي ينتاب النفس ويراودها بين الحين والاخر، وقد يجلب الهم للانسان كما فعل بالخنساء،حيث هي الباكية -الحزينة- ، وقد عرف البكاء الدائم عن طريقها عند النسوة حينما يفقد لهن أخا أو زوجا أو قريبا، فنراهن يستذكرهن بالشجن. وقد عرف هذا اللون من الأغراض شواعر ولاسيما من المخضرمات، مثل الخنساء ومروة والرباب ابنتا عبدالمطلب بن هاشم، وفاطمة بنت الأحجم الخزاعية، ومن الشعراء من مثل امرئ القيس وعبد يغوث. وقد تكونت بنية القصيدة الرثائية في شعر ما قبل الاسلام وشكلت لوحة فنية، مفرداتها وألوانها تقترب من النفس ومخيلاتها، وهذا ما نكون بصدده في دراستنا.

**مقدمة:**

الرثاء غرض شعري وجداني، اتصل بالذات الإنسانية أخلص في صناعة الشعر في المفقود بكاءاً وندباً وتأبيناً و عزاء، وأخلص لمفهوم الإنسان الذي أبكى أخاه الإنسان تعبيراً عن الإنفعالات والعواطف الصادقة المتأججة التي تنتابها الحزن و الهم سخطاً على الموت الذي غيب إنساناً عزيزاً. وارتبطت الكلمة فيه بتحقيق الألم والمواساة والصبر والثناء على الميت وتعداد مناقبه والإشارة بمآثره وأمجاده والتوجع عليه، وقد وثّق عصر ما قبل الاسلام الكثير من المرثيات في الشعر وفي أحداث مختلفة لعدد من الشعراء، منهم امروء القيس والنابغة الذبياني و دريد بن الصمة و عبد يغوث وغيرهم، ومن النساء الشواعر الخنساء و مروة والرباب إبنتا عبدالمطلب بن هاشم و فاطمة بنت الأحجم الخزاعية وغالباً ما كان الشاعر في عصر ما قبل الاسلام يبتدأ بالرثاء مباشرة دون متابعة المنهج المعروف في نظم القصيدة، بسبب حزنه الشديد والانفعالات العاطفية الحادة في نفسه فيستهل رثاءه بما ينتابه من حزن وألم وهمّ، فيصرخ الشاعر بتفجعه في مستهل القصيدة، دون الوقوف على المقدمة الطللية، مشكلاً لوحته الرثائية وبأبعاد عديدة من حيث المرثي فربما يكون أباً أو أخاً أو أبناً أو صديقاً أو حبيباً أو غير ذلك، مجسداً صدق المواساة وعمق المشاعر المفجوعة من الأثر . وقد جاءت هذه الدراسة بمبحثين ضم كل منهما مجموعة من المطالب.

**المبحث الأول: الرثاء في شعر شعراء ما قبل الإسلام**

المطلب الأول: رثاء الفرسان: يظهر أقدم أنموذج لرثاء الفرسان في شعر مهلهل بن ربيعة، إذ يرسم لوحة تشكيلية فنية، تتميز بالخطوط والألوان الحزينة، وقد أحاط اللون الأسود والقاتم في رسم هذه اللوحة، حيث يتراءى للألفاظ مدى الهم والحزن الكامن في نفس (المهلهل) عندما رثى أخاه( كليب)، فأبيات القصيدة تشع هموما وحزنا صادرا من قلب مفجوع، ويتجلى ذلك واضحا مع مطلع القصيدة التي يصف بها معاناته طول الليل حتى تبدو له الكواكب وأبراجها ثابتة في مكانها، وإن حركة الزمن توقفت وإن الكون قد تجمدت :

| | |
|---|---|
| أَلَيْلتنا بِذِي حُسُمٍ أنيري | إذا أنتِ انقضَيتِ فلا تحوري |
| فإن يك بالذناب طال ليلي | فقد يبكي من الليل القصير |

(الديوان ،ص38والأصمعي ، 1366هـ ،القصيدة:24)

في هذه اللوحة يصف لنا حاله بعد مقتل أخيه(كليب)، ثم ينتقل فجأة الى الحادث، والشاعر نجده يفتخر بنفسه أيضا وما أحدثه في الأعداء من الأهوال والشدائد وعدم رباطة الجأش ثأرا للقتيل:

(الديوان،ص39 والأصمعي،1366هـ، القصيدة :24 )

فاللوحة التشكيلية لهذه القصيدة تصف لنا الحالة النفسية التي تنتاب الشاعر من حين لآخر، حيث لا يراوده الأمل واليقين على نيل مراده من الثأر لقاتل أخيه، وفي الوقت نفسه يفخر بنفسه، لأنه أصاب الأعداء بالهول والهزيمة.

ويمكننا ملاحظة دلالة ذلك عن طريق كلمات الفخر التي حاكها ورسمها الشاعر المهلهل. فبعد أن نال مراده، والقصيدة تفوح بعبق النواة والانتصار، فهو يرثي القتيل ليثير الحماسة للثأر، فإن أدركوا ثأرهم أدركوا من القاتل، افتخر بذلك، فاللوحة تشي بألوان حزينة، وفي البيت معنى ذا أن كليبا كان يعير مهلهلا فيقول: أنت زير النساء، وإنما يقال ذلك لمؤثر النساء والحديث إليهن على المساعي وطلب الذكر، وكان مهلهلا أوقع بهم بالذنائب وقعة منكرة فيقول: لو رأى كليب ما صنعت لعلم أي غير زير.

**المطلب الثاني: ملاءمة النسيب للرثاء:**

هذه اللوحة التي نعرضها نُسج بخيوط من الحزن والإنتصار وابتعاد الزوج عن زوجته إذا لم يدرك ثأره، فهذه اللوحة تستذكر حالة الثأر التي مضت عليها مدة من الزمن فهي عود إلى الماضي، فالشاعر (دريد بن الصِمّة) رسم لنا لوحة تشكيلية موشاة بالنسيب والرثاء، هذه اللوحة الفنية من نماذج رثاء الفرسان، وهو الشائع في عصر ما قبل الإسلام.

ففي هذه الأبيات الشعرية يتذكر زوجته وأهله، فيبدأ بالرثاء بوصف حاله مع زوجته التي تعلم على عادة الجاهلية ألا يقترب منها، وعندما أدرك الشاعر معناه بعد مضي دهر من فراق زوجته، رّسم لنا هذه اللوحة بعد الإنتقال من النسيب الى الرثاء متناولا مقتل أخيه و ولهه لذلك، ووصف أخاه بالشجاعة والجود والمضاء والصبر وحزم الشيوخ، ثم يمدح بشجاعة نفسه بعد ضرب من النسيب بقوله:

| | |
|---|---|
| أَرَثَّ جديدُ الحبلِ من أمِّ مَعبَدِ | بعاقبةٍ وأخلفتْ كلَّ موعِدِ |
| وبانَت ولم أُحمد اليك جوارها | ولم ترجُ فينا رَدة اليوم أو غدِ |
| ..... | ..... |
| أَعاذلَ إنّ الرُّزءَ في مثل خالدٍ | ولا رُزءَ فيما أهلك المرء عن يدِ |

(الديوان، ص57،ص59 والمفضل الضبي،1976، القصيدة :54).

نجد أن النسيب هنا يلائم الرثاء، ولاحظنا أن الشاعر قد أجاد في رسم لوحته الفنية بألوان زاهية قسم منها لون حزين والآخر مفرح، عرّف باسم ( التأبين)، وهو يقابل المديح للحي، وكان رثاء الرجل ومراثي النساء عرّفت فيها ما يدعى بالنواح وما يدعى بالندب.

**المطلب الثالث:أ/ رثاء الشاعر لنفسه :**

هناك أسباب عديدة تدفع بالشاعر الى رثاء نفسه، منها التأسف على الشباب، أو التبرم من الدنيا، أو الغربة المكانية والزمانية والشعور بدنو الأجل، وقد كشف هذا النوع من الشعر عن رؤية الشعراء في مسألة الحياة والموت، ووثق بعض جوانب حياتهم من أيام الجاهلية، ونالوا الإعجاب على اعتبار أنه يصدر من عاطفة صقلها الحزن الذي يعتري المرء نفسه حين يشعر بأنه سيفارق الحياة، وأن الموت مدركه، وقد اشتهر العديد منهم في هذا النمط من الرثاء، ويتجلى ذلك في هذه القطعة التي صاغها لنا الشاعر (سعية بن غريض) اليهودي، والذي لم يدرك الإسلام، حيث أبدع في هذه اللوحة التي رسمت بالهم والحزن، حيث يوجه الشاعر الى نفسه عندما يحس بالموت، وما الطقوس والكلمات التي ستجري على رفاته من ترحيل لشعره، ودرج الجثمان في اكفان ثم لحده ودفنه، يقول في رثاء نفسه:

| | |
|---|---|
| ياليت شعري حين أندبُ هالكا | ماذا تُؤبِّنُني به أنواحي |

أيقُلنَ لا تَبعَد فَـرَ ُبّ كريـهةٍ فرّجْتُها بشجاعةٍ وسماحِ

(الأصمعي،1366هـ، القصيدة: 80).

إن هذين البيتين قد رسما عن قرب لوحة حزينة كشفت عما تعتري نفسه من قرب نهايته، وإن أنواحه لن تهتدي له روعا ولا تجديه نفعا.

ب/ الشاعر امرؤ القيس يرسم لنا لوحة تشكيلية حزينة موشاة بمعان ودلالات مشحونة بالألم، وذلك حين يتذكر نفسه، وهو رثاء يعتمد على التأبين وذكر المفاخر، فهذا المزج المفعم بالألم والهم وحين ذكر المواقف والمفاجر، حيث يقارن بين ما صار اليه من العجز والبؤس، وما كان عليه من التمتع بالحياة وملذاتها في زمانه، يقول:

فإنْ أُمسِ مكروبا فيارَبَّ بُهمةٍ كشِفتُ اذا ما اسْودّ وَجْهُ الجبانِ

وإن أُمسِ مكروبا فيارُبَّ قيْنَةٍ مُنعّمةٍ أعمَلتُها بكيران

وإن أُمسِ مكروبا فيارَب غارةٍ شهدت على أقبَّ رخوِ اللبان

(القيسي،1976 : 246 وديوان الشاعر،1964: 35) .

هذه اللوحة قد أعطتنا الدليل لما سيتذكره امرؤ القيس من الحياة الماجنة التي عاشها في شبابه، وهي صورة رثاء شائعة. ويستمر الشاعر في رسم لوحته المفجعة التي تزهو بألوان الألم والفراق من خلال البوح بدلالات الكلمات ومعانيها التي رسم لنا بها هذه اللوحة من الرثاء الرمزي التي تعتمد على الإشارة الحسية المجازية لتصوير معنى عقلي، والشاعر أمروء القيس في القطعة هذه يرثي أباه على الرغم مما كابده، بسبب تعامله مع الشاعر ، وفيها يصف الشاعر صيادا ماهرا مخبأ بين أغصان الشجر عند حدود الماء، الأمر الذي حدا به يسدي قوسه إلى الوحش فرماها بهامه الصائبة فلم يخطئ، فهذه اللوحة يذكر أباه بكل صفاته الإيجابية، وسوف نختار جزءا منها، حيث يقول:

رُبّ رامٍ من بني ثُعَلٍ مُتلجٍ كَفّيه في قُتَرِه

قد أتتهُ الوحشُ واردةً فتنحّى النزعُ في يسره

(ديوان الشاعر،1964 :80)

وهذه اللوحة هي عبارة عن قصة تمثل الإنسان الذي لا ينجو من القدر وتصور قسوة هذا القدر، الذي يتربص على الإنسان ويفاجئه عندما يظن أنه وصل الى هدفه.

وفي لوحة تشكيلية فنية يعبر فيها وبحزن بالغ ودلالات مفعمة بالألم والهم الذي ينتابه، فيلجأ أسوة بغيره من شعراء ما قبل الإسلام، حيث يرثي نفسه لقاء توجعه بحياته الماضية التي تبددت وأصبحت لا قيمة لها، بل كانت أحلاما وسرابا، والشاعر قد وفق في رسم هذه اللوحة بكل أبعاد ما يجيش بنفسه، فيقول:

كأنّي لم أركب جوادا للذة ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

(الديوان، 1964 :200)

والشاعر (عبد يغوث الحارسي)، قد تأثر بالشاعر أمرىء القيس في رثائه لنفسه مما حدا به أن يحذو حذوه، فيرسم لنا لوحة تشكيلية مرسومة بألوان باهتة هادئة، تتم عن استذكاره لشبابه وبعد موته كيف تكون حالته، فهي لوحة تعبر عن مكنونات نفسه وما يدور بخاطره، فكل مفردة رسمها الشاعر لها دلالة معبرة عن النفس، فيقول:

كأني لم أركب جوادا ولم أقُل لخيلي كُرّي نفِّسي عن رجاليا

ولم أسبأ الزِّقَّ الرّوي ولم أقُل لأيسارِ صِدقٍ: أعظوا ضوء ناريا

(المفضل الضبي ،1976 :76)

وتعتبر تلك الأبيات من روائع ما قيلت في رثاء الشاعر لنفسه، وقد تحدثنا عنها انفا بأسطر قليلة قبل الاستشهاد بالأبيات.

**المطلب الرابع: رثاء الأخ لأخيه:**

ان دموع الشعراء في شعرهم دلالة واضحة عن وجود حزن عميق في نفوسهم، وقد يكون الدافع عندهم فراق الأحبة، أو موت عزيز لديهم، حيث نلاحظ ان دموعهم تتلاحم وتنخرط مع كلماتهم، لاسيما إذا كان رثائهم في موت أخ لهم، عندئذ تكون العاطفة أصدق وأرق العواطف وذلك لأن الأخ هو بمثابة الصديق والسند الرصين عندهم. وبما أن الأمر كذلك فلا عجب أن نرى قصيدة سموها المراثي وهي لوحة مطرّزة وموشاة بكلمات الحزن والألم التي تفسرها الألوان المتواصلة من الحزن، وهذه اللوحة التشكيلية التي رسمها الشاعر ( متمم بن نويرة اليربوعي) لأخيه (مالك)، وتعد أبياتها كلها جزعا وفزعا، انتابت شخصية(متمم)، لأن فقدان الأخ ليس سهلا. قُتل ( مالك) زمن الخليفة أبي بكر(ر.ض) في حروب الردّة، قال الخليفة عمر بن الخطاب (ر.ض) لـ(متمم بن نويرة): أنشدني بعض ما قلت في أخيك، فأنشده:

وكُنّا كَندماني جذيمةَ حِقبةً من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

فلمّا تفرّقا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(ابن قتيبة ،1969 : 254و ينظر الصفار،2004 :11).

فقال له الخليفة يا متمم، لو كنت أقول الشعر أن القول في زيد بن الخطاب مثل ما قلت في أخيك، قال متمم يا أمير المؤمنين ( ما عزاني في أخي بأحسن ما عزيتني به) (ابن قتيبة،1969: 255).

وهذه القصيدة من أحسن ما قاله على الرغم من الحزن والهم اللذين يعانيه ويكابده، وإن الحزن العميق الذي عبّر عنه الشاعر في رثائه لأخيه (مالك) لم يكن ناتجاً من وطأة الإحساس بقهر موقف السلطة المتحيز من وجهة نظر الشاعر للقاتل.

**المطلب الخامس: خصوصية المرثي:**

مما لاشك فيه أن لكل إنسان مجموعة من الخصال والصفات يميزه عن غيره، والصواب في الانسان أن يكون متمسكا بمجموعة من الخلق الكريمة والفضائل في حياته، ونحن نعلم ان الرثاء هو التعبير عن الحزن بالحركات أو عن طريق البكاء صمتا أو نواحا. الشعراء يقومون بالتعبير عن حزنهم عن طريق الشعر، حيث يقومون بالاشارة الى الصفات والخلق

الفاضلة عند أمواتهم مثل الكرم والعفة والشجاعة والصدق....الخ من الصفات الانسانية النبيلة.

على ضوء ذلك نرى ان الشاعر (كعب بن سعد الغَنوي) يرسم لوحته التعبيرية والواقعية والتي تشي برائحة الصدق والحرارة والخصال الحميدة، الأمر الذي يعجب المشاهد لهذه الموشاة، فيقول:

حليمٌ إذا ما سَورةُ الجهلِ أطلقتْ صُبَيَ الشِّيبِ للنّفسِ اللّجُوجِ غلوبُ

(عبدالرزاق، 2001، :156).

ثم يعمق الشاعر لوحته الفنية في ابراز الخصال الحميدة للمرثي وعفّة النفس عن فاحش القول وعفة النظر وعدم التطلع الى النساء كالجارات، وهذه المعاني كلها تتمثل في الصفة المطلقة التي تجعل من يحيط بصاحبها عفيفا متورعا عن ارتكاب أبسط الأشياء التي تجرح كرامة صاحبها، كما نلاحظ ذلك في الأبيات الشعرية للشاعر (كعب)، يقول فيها:

إذا ما ترا آه الرجال تحفظوا فلن تنطق الحوراء وهو قريب

أخي ما أخي لا فاحش عند بيته ولا ورع عند اللقاء هيوب

(الأصمعي، 1366هـ :160)

فهذه لوحة تتم فيها معنى الإنسانية والورع والجو اللطيف الذي خيّم على لوحته، حيث رسمها بكلمات ذات دلالات انسانية عفيفة حيث الانسانية المهذبة التي هي من خصال المرثي، وصدق الشعور وجلاله وطول الحزن وخلود يبقى يشيع في معانيه ودلالته في رسم اللوحة، وهذه ما دفعت بالأصمعي أن يقول فيها ليس في الدنيا مثلها.ومثل رثاء متمم بحق أخيه مالك، من طبقة أصحاب المراثي هو ( كعب بن سعد الغنوي) والذي رثى أخاه ( أبا المغوار). فالشاعر يرسم لنا لوحة تشكيلية واقعية حزينة، حيث تفوح رائحة الحزن من معاني كلماتها مستقطبة للاخرين، وهو مقتل أخيه أبي المغوار، الذي جعله يتحسر على فقده، حيث تشع قيم البطولة من بين ألوان اللوحة، فالشاعر يتوجع ويتألم وينعى في أخيه البطولة والجود والنجدة والحلم، كما نلاحظ في مرثيته ( البائية) التي رسم فيها مدى ألمه ولهفته عليه، وبرز فيها ذلك الشجو الغنائي والتي نستشف من خلالها ألم الشاعر ودموعه وحزنه والهم الذي يخيم على نفسه ودموعه التي تزيل عينيه وتشجيا وجهه مما يثير دهشة امرأته، فيقول:

تقول سليمى مالِجسمك شاحِباً كأنكَ يحميكَ الطعام طبيبُ

فقلتُ ولم أعِ الجواب ولم ألح وللدهر في صمّ السلام نصيب،

تتابُعُ أحداثٍ تخرَّمن اخوتي وشيبن رأسي والخُطوبُ تُشيبُ

(ابتسام مرهون، 2004 :116)

نلاحظ الشاعر قد رسم منذ البداية لوحة فنية، خطوطها وألوانها عن الألم والحزن الذي يعانيه، وهو بهذا قد أخرس الألسن الشامتة، وابتلع أوجاعه في صمت المقاتل العنيد، على الرغم من هول المصاب ومرارته وكثرة الطعنات وقوتها ولاسيما كانت لأقرب الناس وأعزّهم عليه، والذي كان مستعدا لفدائه بمهجته أو عينه أو يمنى يديه، كما يقول:

جَموعُ خلال الخيرِ من كلّ جانبٍ إذا جاء جَياءُ بهنَّ ذهوبُ

فلو كانت الدنيا الدنيا تباع اشتريته بما لم تكن عنه النفوس تطيب

بِعينيَّ أو يُمنى ديَ وقيل لي هو الغانمُ الجذلانُ حين يؤوبُ

(ابتسام مرهون ،2004 :116.117).

**المبحث الثاني: الرثاء في شعر المخضرمات:**

**المطلب الأول: رثاء البنت لأبيها:**

فقدان الأب من أصعب أنواع الفقد، فهو يولد الشعور بالحزن والألم والشعور بعدم الأمان، لذلك فإن موقف البنت من فقد أبيها موقف الحزن الكبير والفجع الأليم وموقف الحنين والإشتياق والتذكار، وكان لهذا الأثر الكبير في تفجير ذاكرة الشاعرة التي جاءت مليئة بالمواقف الإنسانية والتفاصيل الدقيقة التي تختزنها في علاقتها بوالدها، معبرة لوعة الفراق وشدة الاشتياق .وهذه لوحة فنية تشكيلية جنائزية أرادت الشاعرة ( بَرّة بنت عبدالمطلب) أن ترثي أباها قبل موته، فجاءت بلوحة حزينة، وكيف لا؟!وهي ترثي أباها وحاميها يوم الشدائد والملحات، لشخص تتمثل فيه قيم الجود والكرم، فتقول:

أعينيّ جـودا بدمع درر على طيب الخيم والمعتصر

على ما جد الجد واري الزناة جميل المحيا عظيم الخطر

لـه فضل مجدٍ على قومه منير يلوح كضوء القمر

(نضال الزبيدي ،2011 :31).

حيث أن الشاعرة أرادت وطلبت من عينها البكاء الدائم والدموع تنهمر بغزارة ودون توقف، وذلك لأن ألم فقدان الأب يجعل الانسان منهارا الى حد الاحساس بضياع نفسه، فالألم مُربك، ولكن الشاعرة أرادت أن يصف أباها بعبارات مُشجية ومن خلال كلماتها يقلل من حزنها وألمها، وهكذا نجد اللوحة تتحدث عبر كلماتها عن جوده وكرمه وفضله تجاه قومه وغيرهم.

وهذه لوحة تشكيلية ثانية في رثاء الأب، خطت بخيوط من الحزن والألم، فالشاعرة الجاهلية( سلمى بنت مالك الفزارية) ترثي أباها، وان أباها قتله بنو عبس بن مالك بن زهير، فتقول:

لله عينا من رأى مثل مالك عقيرة قوم إن جرى فرسان

فليتهما لم يشربا قطرة وليتهما لم يرسلا لرهان

إذا سجعت بالرقمتين حمامة أو الرّسُ تبكي فارس الكثفان

أحلَّ به أمس ( الجنيدب) نذرة (كأيُّ) قتيل كان في غطفان

(نضال الزبيدي ،2011: 32. 33).

ومن خلال تلك النماذج الشعرية يتبين لنا ان مراثي الشواعر يكون أكثر حزنا وألما مقارنة بمراثي الشعراء، وذلك لأن المرأة اكثر حنانا في التعبير عن الحزن، وكلماتهن اكثر رقة.

**المطلب الثاني: الرثاء بين الحبيبين والمحاورة بينهما:**

نحن أمام لوحة واقعية ولكنها حزينة مليئة بالهموم والحب الصادق الصادر من نفس مكبوتة وضع حبيبها في حجرها وشاهدت مقتله، قالت (حبيشة بنت حبش الكنانية)، وقد أقامت محاورة شبه غرامية_ عتاب بين الأثنين_ للشخص الذي أحبته وهو عبدالله بن علقمة الكناني، حيث يقول:

إن يقتلوني يا حبيش فلم يدع هواك لهم مني سوي غلة الصدر

فأنتِ التي أخليتي لحمي من دمي وعظمي وأسبلت الدموع على نحري

(نضال الزبيدي ،2011: 32. 33).

غالبا ما نلاحظ ان الانسان يتحدث مع الأموات دون محظ ارادته، لأن الأموات لا يستطعون الكلام ولا يردّون على ما يقال لهم، ففي تلك الأبيات نرى ان الشاعرة تتحدث مع حبيبها وعاتبه على فراقه، ومن ثم تصف حبها له بأصدق العبارات.

وتقول حبيشة له في أثناء هذه اللوحة الحوارية التي يسودها الحب تارة والعتب تارة أخرى:

ونحن بكينا من فراقك مرّة وأخرى وأسيناك في العسر واليسر

وأنت فلا تبعد فنعم فتى الهوى جميل العفاف في المودة والستر

(نضال الزبيدي ،2011: 40).

**المطلب الثالث: رثاء الأخت لأخيها:**

وهذه لوحة نابعة من أجمل الوشائج التي تربط بين الأخت وأخيها، اللوحة التي حفرت كلماتها بعمق وصدق العاطفة لإمرأة من (بني جشم)، ترثي أخيها لها، تقول:

أعينيّ جودا على مالك معاً والغلاء ولا تجمدا

هما القاتلان أبا عامر وقد كان ذا هبّة أربدا

هما تركاه لدى مُجْسدٍ ينوء نزيفاً وما وسدا

(نضال الزبيدي ،2011: 97)

قرأنا رقة العاطفة وصدق الشعور من أخت لأخيها ، حيث ان الشاعرة خاطبت عيونها بأن يهطل الدموع بغزارة، والصورة محزنة والمشهد اكثر حزنا، لأن الأخت عندما تفقد اخاها تحس انها ضائعة. ونجد ان الشاعرة تقع تحت تأثير قصيدة الخنساء،التي تقول فيها:

أعينيّ جودا ولا تجمُدا ألا تبكيان لصخر الندى؟

(الديوان ،د.ت :32)

**المطلب الرابع: رثاء الأم لإبنها:**

هذا النوع من الرثاء شديد التأثر والتمكن من نفس الإنسان، وذلك لما تحمله الأم من عواطف صادقة، وهذا النمط من الرثاء فيها من التوجع والألم يصعب تحملها.

وهذه اللوحة التي نتناولها هي لوحة مليئة بالأحزان والهموم، حيث الألم والفراق يعتصر نفس الأم لفقدان ابنها وقتله في المعركة، وعلى العموم فإن كلماتها مشحونة بالغضب تارة، وبصدق العاطفة تارة أخرى، فتقول لنا الشاعرة المخضرمة( أم فطن بن سريح)، وهي إعرابية ترثي ابنها الذي قُتل:

يا جامعاَ جامع الأحشاء والكبد يا ليت أُمك لم تولد ولم تلد

لما رأيتك قد أدرجت كفن مُطَيَّباً للمنايا آخر الأبد

أيقنت بعدك أني غير باقية وكيف يبقى ذراع زال عن عضد

(نضال الزبيدي ،2011: 69).

وتقول فيه أيضا وفي لوحة أخرى صادرة من قلب أم ثكلى حزينة لقتل فلذة كبدها، وإن خيوط المعاني للمفردات اللغوية تفصح عن معاناة وحزن الأم:

ألا تلك المودّة لا تدوم ولا يبقى على الدهر النعيم

ولا يبقى على الحدثان غفر لـه أم بشاهقة رؤوم

(نضال الزبيدي ،2011: 70).

ومن هذا القبيل نجد الشاعرة المخضرمة( الخنساء بنت عمرو بن الشريد الحارثي) ترسم لنا لوحة تشكيلية بكائية، وهي قد عرفت البكاء منذ أمد بعيد، وبصدق مفردات الحنان التي تنم عن عمق المحبة بين الأخت وأخيها، فهي لوحة محزنة واقعية وليست رومانسية، تفوح ألما وحسرة، سواء الكلمات أو تشكيل الصور الشعرية عن طريق تبادل الحواس أو التجسيد أو التشبيه، فها هي الخنساء ترثي أخاها صخراً، فتقول:

أعينيّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

(الديوان،د.ت :32)

ويبدو أن الخنساء حاولت الوفاء بعهد أخيها الى أقصى الحدود الممكنة فعذبت نفسها هذا التعذيب القاسي، وقد أفصحت اللوحة التي رسمتها بكلمات الفجيعة ذلك، مقرونا بحزنها وبكائها في كل حين، تقول:

يا ابن الشريدِ وخيرَ قيسٍ كلِّها خَلَّفتني في حسرة وتبلد

فلأَبْكِيَنَكَ ما سمعتُ حمامةٌ تدعو هديلاً في فروع الفَرقدِ

(الديوان، ص39 و عبدالرزاق خليفة ،2010: 160. 162) .

تلك الكلمات المليئة بالأحزان والشجون دلالة واضحة عن صدق مشاعرها وشدة حزنها في تلك المأساة، والأبيات من روائع ما قيلت في الرثاء.

وسوف أبكيك ما ناحت مُطوَّقةٌ  وما أضاءت نجوم الليل للساري

ولا أسَالِمُ قوماً كنتَ حَربَهُمُ  حتى تعود بياضاً جؤنةُ القارِ

(ديوان الخنساء ،د.ت: 54، و عبدالرزاق خليفة ،2010 : 164.165) .

والجدير بالذكر أن اقتران حزن الخنساء بنوح الحمام واضح في شعرها وهو دليل على خلود الحزن واستمراره واقترانه بدوام الدهر وبقائه وضياء النجوم وثباتها.نلاحظ في اللوحة أن الشاعرة تؤكد وفاءها الأبدي لأخيها وحربها الدائمة لأعدائه التي لا تنتهي حتى يتحول السواد الى البياض وهو شيء مستحيل، كذلك مستحيل عليها أن تنسى هذا الحزن والألم، وتقول في قصيدة أخرى:

ألا يا صخر لا أنساك حتى  أفارق مهجتي ويشق رمسي

يذكرني طلوع الشمس صخرا  وأذْكُرُه لكلِّ غروبِ شمسِ

فلو لا كثرة الباكين حولي  على اخوانهم لقتلتُ نفسي

(عبدالرزاق خليفة ،2010 : 165.166)

وترسم لنا لوحة من بديع رثائها لصخر والذي تستهله كعادتها بتصوير الحزن والحديث عن الذكريات التي تجعل العينين تفيضان بالدموع التي أصبحت خالدة ما دامت الحياة:

ما هاج حزنك أم بالعينِ عُوّارُ  أم ذرفت إذ خَلت من أهلها الدارُ

كأنّ عيني لِذكراهُ إذا خَطرَت  فَيضٌ يسيلُ على الخدّينِ مِدرارُ

تبكي لصخرٍ هي العبرَى وقد وَلَهَتْ  ودونه من جديدِ التُّربِ أستارُ

تبكي خنّاسٌ على صخر وحق لها  إذا رابها الدهرُ أن الدهر ضرّارُ

(عبدالرزاق خليفة ،2010 : 166.167)

لاحظنا هذا العدد من الألوان المتواصلة من الحزن كلها تأكيد على ما ألفناه عند الخنساء من خلود الحزن وديمومته، فهي بحق سيدة الحزن العربي منذ تاريخه الطويل الى الآن. فهي وبحق من نادرات الشواعر اللواتي رسمن لوحات رثائية مليئة بصدق العاطفة والاحاسيس الانسانية.

**المطلب الخامس: رثـاء الزوجة لزوجها:**

مما لاشك فيه أن فقدان الزوج تعد مأساة حقيقية للزوجة، وعلى وجه الخصوص عندما الزوج بمثابة صديق مخلص وحنون، تكون المرأة تحس بالأمان عندما تكون بالقرب منه، وعندما تكون الزوجة شاعرة وتفقد زوجها فإن قلبها ينفطر من الحزن وعيناها تنهمران بدموع مليئة بالحزن ، ومن خلال قصائد أو أبيات شعرية ترسم صورة مأساوية تجعل من الإنسان أن يندمج مع ذلك الحزن .

وهذا ما نجدها عند كثير من الشواعر، ومنهن الشاعرة ( فاطمة بنت الأعجم الخزاعية)والتي رسمت صورة تشكيلية فنية، صورة لما هو واقع حتما، حيث ترسم لزوجها ( الجراح) عندما رثته مصورة ضعفها وحزنها الشديدين لفقد حاميها وسندها في حياتها، فهي لوحة تبوح بالحزن أولاً، وبوشائج الحب والحنين ثانيا، فتقول:

يا عينُ بكّي عند كل صباح  جودي بأربعةٍ على الجرّاح

قد كنت ذات حمية ما عشت لي  أمشي البراز وكنت أنت صباحي

فاليوم أخضع للذليل واتقي  منه وأدفع ظالمي بالراح

وأغض من بصري واعلم أنه  قد بان حد فوارسي ورماحي

وإذا دعت قمريّةٌ شجناً لها  يوما على فنٍ دعوت صباحي

(عبدالرزاق خليفة ،2010 : 162.163) و (نضال الزبيدي ،2011 :162).

ومن هذا القبيل نجد لوحة تشكيلية مزينة بألوان الحزن والفجيعة، حاكت خطوطها بأناملها بفرشاة موشاة بالحزن العميق أيضا، وهذه اللوحة التشكيلية للشاعرة ( جليلة بنت مُرّة الشيبانية) على زوجها ( كليب)، فقد كانت اللوحة أمرّ وأقسى من سابقها، لأن فيها من الحزن المعلق والخفي للعيان والسامع، فهو لا ينتهي، فهي عندما فقدت زوجها على يد أخيها ( جساس)، فكأنما فقدت جسّاسا أيضا، لأن الثأر يجعل القاتل في حكم الأحداث، وقد قتل فعلا على يد ولدها ( هجرس)، وفي ذلك تقول:

ليسَ مَن يبكي ليومينِ كمَن  إنّما يبكي ليومٍ ينجلي

درك الثائر يشفيه وفي  درَكي ثأري ثُكلُ المُثكِلِ

إنّني قاتِلةٌ مقتولةٌ  ولعلّ الله أن يرتاح لي

(عبدالرزاق خليفة ،2010 :164 .165) و (نضال الزبيدي ،2011 :169).

نلاحظ أن الشاعرة انهارت حياتها بفعل جساس، وكان فقد عينها أهون لديها من الذي حدث، بل أن الموت بحد ذاته أرحم بكثير مما حدث وسيحدث لها.

هذه إلمامة بشعر الرثاء مرسومة بلوحات تشكيلية أغلبها حزينة قاسية ومؤلمة حقاً، لأن شجونها وهمومها متعددة، وشعراء وشواعر قبل الإسلام قد تطرقوا إلى هذا الغرض عن طيب خاطر بهدف تبيان آلامهم وحزنهم، ولقد تعددت لوحات المراثي في قصائد الرثاء.

**الخاتمة:**

1/ إن الشاعر في عصر ما قبل الإسلام في الرثاء سعى إلى رسم الصورة المثالية للمرثي من خلال الصفات الحميدة التي عرف بها في حياته لتمثل مرحلة تخليدهم بعد الموت بفعل تلك القيم النبيلة والأفعال الحسنة.

2/ استخدم شعراء عصر ماقبل الإسلام للمعاني والمدلولات المتشابهة الدالة على القيم النبيلة مع اختلاف موضوع الرثاء الذي تدور حوله تلك المعاني.

3/ قصيدة الرثاء في عصر ماقبل الإسلام لم تسير على المنهج المعروف للقصيدة الجاهلية، فيرثي الشاعر دون ان يقف على الأطلال أو يصفها في الغالب وعلى وجه الخصوص عند رثاء الأقارب وهذا دلالة على صدق العاطفة و شدة الحزن.

4/ تُعدْ الشاعرة (الخنساء) مفصلاً مهماً من مفاصل الحركة الشعرية و رقماً صعباً في خارطة الرثاء العاطفي، فقد صدر رثاؤها عن قلب موجع وعاطفة حارة خالية من كل تكلف مما يترك اثرا محزنا عميقا في نفس السامع والقارىء.

## المصادروالمراجع:


1/ الأصمعيات: عبدالملك بن قريب الأصمعي، مطبعة محمد، المكتبة التجارية، مصر، 1366هـ.

2/ تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام: د. نوري حمودي القيسي، مطبعة دار الحرية، بغداد، 1979م.

3/ ديوان أمرؤ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، 1964م.

4/ ديوان الخنساء، شرح : حمدو طماس، دار المعرفة، ط3، لبنان ،2004م.

5/ ديوان الخنساء، مطبعة دار المعارف، مصر، القاهرة،(د.ت).

6/ ديوان دريد بن الصمة، تحقيق : د. عمر عبدالرسول، دار المعارف، القاهرة ، مصر ،د.ت.

7/ ديوان مهلهل بن ربيعة، تحقيق : طلال حرب ، الدار العالمية ، الأسكندرية، مصر، د.ت.

8/ الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام: بشرى محمد علي الخطيب، مطبعة الادارة المحلية، بغداد، 1977م.

9/ شعر المخضرمات في الجاهلية والإسلام: د. نضال أحمد باقر الزبيدي، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، 2011م.

10/ الشعر والشعراء: ابن قتيبة،ج1، دار الثقافة، ط2، بيروت، 1969م.

11/ مالك ومتمم ابنا نويرة: د. ابتسام مرهون الصفار، مطبعة دار الجيل، عمان، 2004م.

12/ المرثي واللامرثي في الشعر العربي القديم: د. عبدالرزاق خليفة محمود، مطبعة الينابيع، ط2، سوريا، دمشق، 2010م.

13/ المفضليات: المفضل الضبي، دار المعارف، مصر،( د.ت).

14/ هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي: د.عبدالرزاق خليفة محمود، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2001م.


**Manifestations of Lamentation in Pre-Islamic Poetry - An Applied Study.**


Fadhel Muhammed Qader
Department of Arabic // College of Basic Education// Garmian University



## Abstract

Elegy, in pre-Islamic poetry, is regarded among numerous ways that adapted by the poets at that era and specifically when a dear person for them is being dead or lost. Elegy is considered a form of expressing sadness catches inner side of human beings occasionally. It could cause and fetch sad pains and depression for human being as it happened to Khansa (the poetess) when turned to be a woman of always crying and being sorrowful one, and this been imitated by the women of her age when they were losing their brothers, husbands, and closer relatives. This type of elegiac poetry was utilized by veteran poetess including Khansa, Marwa and Rabab (daughters of Abdul-Mutalib), and Fatima Khuzaeeya, and some poets like Emru Al-Qais and Abda Yaguth. This poetic genre was structured as an art portrait in pre-Islamic poetry, and strictly its vocabularies and forms as closer to contemplation and imagination



Keywords: Lamentations, Khansaa, Malik, poetry